

## منهجية البحث الاجتماعي

### بين الاستنباط والاستقراء

فصيل دليو\*

#### تمهيد

إن المجال الاجتماعي يثير عدة معضلات نظرية ومنهجية، هي في حقيقتها عبارة عن انعكاس منطقي لتنوع وتعقد مختلف الأبعاد، الأشكال والمستويات المشكلة للواقع الاجتماعي من جهة، وللصراع الموجود في الفكر الفلسفي الغربي بين الرومانسية والوضعية، بوصفهما مصدرين أساسيين من مصادره، من جهة أخرى. لقد فرضت هذه الثنائية وجهات وتصورات ومقاربات تحليلية مختلفة ولكنها تغذي بعضها البعض. وهو ما يؤكد د. مارتندال بقوله إن المتطلبات الأيديولوجية المفروضة بداية على علم الاجتماع جعلت منه نوعين: علمي ومحافظ، وتمثل العضوية الوضعية النوعين معاً.<sup>1</sup>

واستناداً لهذه المرجعية وفيما يخص الثنائيات المتعلقة بالمنهجية في العلوم الاجتماعية مثل: معضلة "الاستنباطي والاستقراء"، "الكيفي والكمي"، "الوصفي والتجريبي"، "الفهمي (البيني) والتفسيري"، "التحليلي والجدلي"، "الأحادية المنهجية والتعددية

\* دكتوراه الدولة من جامعة كومبلوتانسي بمدريد (إسبانيا). أستاذ بمعهد علم الاجتماع، جامعة متوري بقسنطينة، الجزائر.

<sup>1</sup> Martindale, Don: *La teoria sociologica, naturaleza y escuelas*, Madrid: Aguilar, 1979, p.147.

المنهجية"....، فإن معظمها وليدة الثنائيات النظرية، وذلك بحكم أن معظم واضعي حجر أساس علم الاجتماع الغربي (كونت، سان سيمون...) والذين عملوا على تطوير منهجه أو مناهجه العلمية (دوركهايم، باريتو، فير، بارسونز، لازارسفيلد...) يتمون إلى نفس الإطار المعرفي والفكر الفلسفي.<sup>2</sup>

يتناول هذا البحث بالعرض والتحليل أهم ثنائية منهجية في البحث الاجتماعي، في نظرنا، وهي الاستنباط والاستقراء، وذلك بدءاً بالهيمنة الاستنباطية (مستعرضين نماذج تطبيقية مختلفة مفصلة لها) لنعرض بعد ذلك المنهج الاستقرائي بدوافعه وأهميته متوجين العرضين بخاتمة استنتاجية وتوجيهية.

### الهيمنة الاستنباطية

إذا كانت العلوم الإنسانية أقل تشكلاً ونضجاً من العلوم الطبيعية، فإن حالة تخلفها في مجال البحث غير متأصلة فيها، بل تفتقر فقط لمزيد من الإحكام الذي تقتضيه تجربة طويلة من التطبيقات المنهجية والتفكير الجماعي للدارسين، كما هو الشأن بالنسبة للتخصصات الكلاسيكية،<sup>3</sup> فضلاً عن طبيعتها النوعية النسبية لأنها تتعامل مع الإنسان في المجتمع وكلاهما معقد، قيمى وفي تغير مستمر.

إن قضية المنهج أو المناهج الملائمة للدراسات الإنسانية إشكال حديث نسبياً، ظهر في القرن التاسع عشر حينما بدأت مختلف فروع العلوم الإنسانية في الاستقلال ووجدت نفسها أمام سيطرة المنهج الاستنباطي في العلوم الرياضية والمنهج الاستقرائي في العلوم الطبيعية. ونظراً لتمييز موضوع دراستها: الإنسان اضطربت واختلفت في اختيارها لأنسب منهج له.<sup>4</sup> فتباينت منذ ذلك الحين مناهج الدراسات الإنسانية بين مختلف التخصصات وحتى داخل التخصص نفسه.

وما يلاحظ في هذا المجال، أن تطبيقات المنهجية في العلوم الإنسانية، وخاصة بعد الستينيات أصبحت متعددة ومتنوعة بشكل لا يمكن حصره كمّاً ونوعاً. ولكنها مع

<sup>2</sup> انظر فضيل دليو، "إشكالية الثنائيات النظرية في علم الاجتماع الغربي"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 11، كوالالمبور: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1998.

<sup>3</sup> Briongos, Hernandez, Mercade: *Sociologia, hoy*, Barcelona: Teide, 1982, pp.128-231.

<sup>4</sup> انظر علي عبد المعطي محمد، رؤية معاصرة في علم المناهج (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1985) ص20.



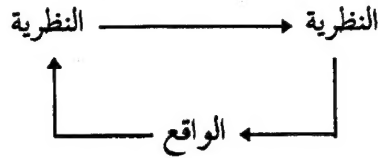
موجهة لتشخيص الواقع الاجتماعي بغية تحصيل أفكار ومعلومات جديدة نثري بها الإطار النظري للعلوم الاجتماعية - بأن البحث الاجتماعي يتبع بغية تحقيق ذلك عملية مزدوجة في حركة عكسية ذات مراحل متطابقة:

يمكن تسمية المرحلة الأولى بعملية الاختبار. وفيها ينطلق البحث من النظرية الموجودة لينزل إلى الواقع التجريبي.

أما المرحلة الثانية، فتدعى بعملية التنظير. وفيها - على عكس الأولى - ينطلق البحث من الواقع ليصعد إلى النظرية.

ويمكن تصور ذلك في الشكل الآتي:

الشكل (1) مراحل البحث عند (Sierra Bravo, R.)



وكما هو ملاحظ من الشكل أن عملية البحث تبدأ بأفكار وتنتهي بأفكار. وباختصار شديد، يرى ر. سييرا برافو بأنه لكي تتم عملية اختبار النظرية في الواقع، لابد من المرور بالمرحل العملية الآتية:

أ - تكوين تصور عن الواقع المراد دراسته انطلاقاً من النظرية ومن بعض مظاهر الواقع المفترض معرفتها، ويطلق على هذا التصور اسم النماذج.

ب - استخراج، من هذه النماذج، أفكار محتملة (فرضيات) يقدر أنها تنطبق على الواقع.

ج - تبعاً لذلك، ننزل إلى الميدان لاختبار مدى مطابقة الأفكار المحتملة للواقع. تنتج عن هذا الاحتكاك أفكار مختيرة أو علمية، ومن ثم تبدأ عملية التنظير أو المرحلة الثانية.

تبدأ مرحلة التنظير من حيث تنتهي مرحلة الاختبار، أي من الواقع ومعطياته. تتبع في ذلك حركة عكسية تدريجية نحو النظرية في عملية استقرائية مكتملة لعملية المرحلة الأولى الاستنباطية، حيث يقدم لنا الوقائع معطيات وصفية نكوّن منها، عن طريق التجميع والمقارنة والتحليل، مفاهيم ومقدمات علمية تعتمد بدورها في عملية بناء النظرية أو النظريات التي نثري بها الإطار النظري الاجتماعي.



المتوخى من الدراسة. في هذه اللحظة تبدأ عملية البحث العلمي الحقيقي. ويتعلق الأمر بتجديد الإطار النظري المرجعي الذي سيستعمل طيلة عملية البحث. وهنا تصبح المطالعة والتوثيق ضروريين لاكتشاف أهمية الموضوع وارتباطه بإشكالية اجتماعية عامة.

ومن أجل تحديد المفهوم وجعله علمياً، يجب إنجاز خطوتين متالتين: تتمثل الأولى في عرض الخطوط العريضة للإشكالية (العرض الأدبي للمفهوم)، أما الثانية، فتتمثل في تخصيص المفهوم، أي تفصيله جميع الأبعاد والتفرعات المكونة له. فالأبعاد إذاً هي المظاهر المختلفة للمفهوم والتي يمكن تشبيهها بمختلف القطع الناتجة عن تقسيم حبة البرتقال التي تمثل في هذه الحالة المفهوم.

أما العنصر الأخير في هذه المرحلة الأولى فيتمثل في الفرضيات التي من خلالها ندخل مقياساً توجيهياً حاسماً لعملية البحث وبمجاله.

- الإطار التطبيقي: يتم خلاله الانتقال من الطرح النظري للمشكلة إلى الواقع الملموس. وهنا تكمن وظيفة المنهجية المتمثلة في الربط بين الواقع الاجتماعي والنظرية. ويتم الرجوع في هذه المرحلة إلى العناصر المتابعة الآتية:

- المتغيرات (التابعة - المتغيرة، الكمية - النوعية، المتصلة - المنفصلة...) والتي تجعل من المفاهيم والأبعاد، سابقة الذكر، عناصر فعالة.

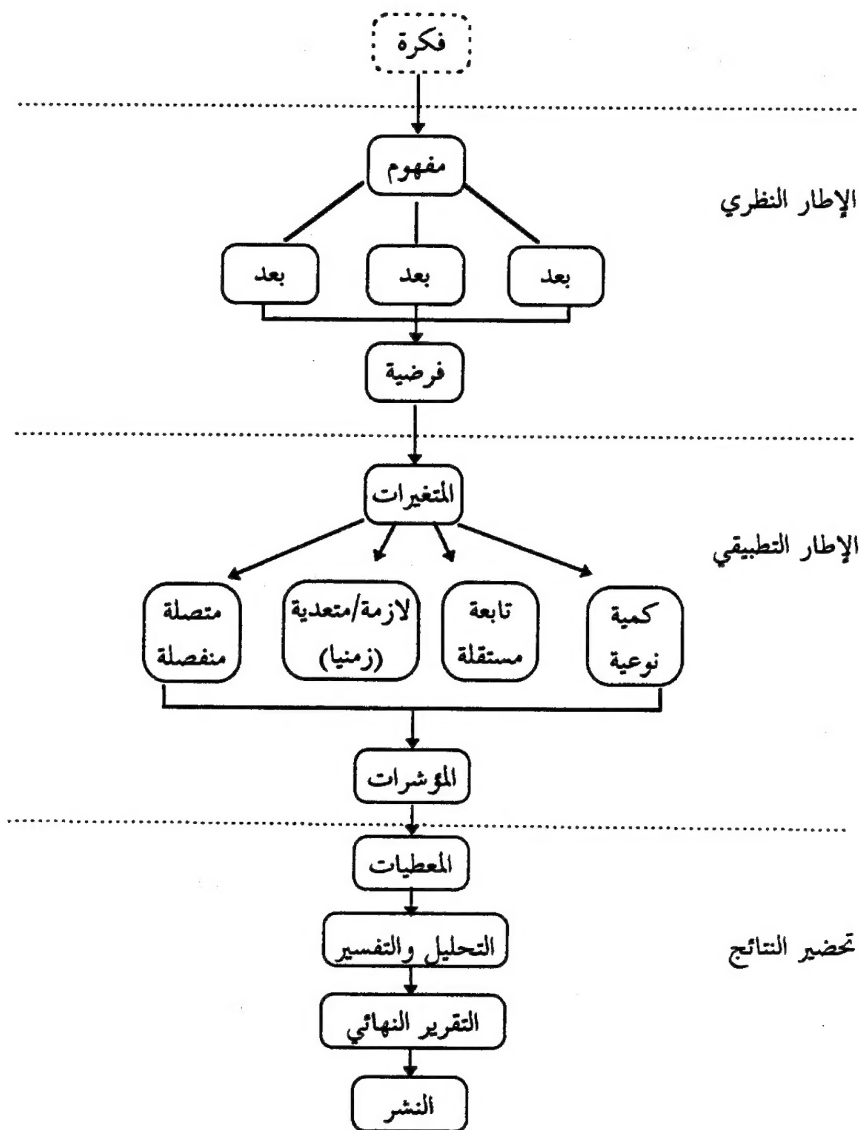
- المؤشرات: وهي عبارة عن القيم التي تسمح لنا بتقريب الواقع من المفاهيم التي هي غير قابلة للقياس المباشر. فهي عبارة عن المعطيات الواقعية الدالة على مفاهيم نظرية مفترضة.

- المعطيات: وهي المعلومات الواقعية التي قد تكون أولية أو ثانوية.

- تحضير النتائج: بعد جمع المعطيات، نمر إلى مرحلة أخرى تتمثل في تنظيم هذه المعطيات من أجل تحليلها وتفسيرها حتى تتمكن من اختبار الفرضيات (نفياً، تأكيداً، تعديلها أو إعادة طرحها من جديد).

أما الخطوة الأخيرة الموالية فتتمثل في تحرير "التقرير النهائي" ثم تقديمه وجعله في متناول القراء. كل هذه العمليات يعكسها الهيكل التنظيمي الآتي:

الشكل (3) الهيكل التنظيمي لمراحل البحث حسب (Briongos, Hernandez, Mercadé)



وفي الأخير فإن ما يمكن ملاحظته على هذه الخطوات التطبيقية لعملية البحث أن أصحابها قد تأثروا كثيرا بطروحات ب. لازارسفيلد التي عرض فيها مراحل البناء،<sup>9</sup>

<sup>9</sup> Grawitz, M., op.cit, pp.389-394.

مركزاً تحليله على عناصر مثل المفهوم، الأبعاد، المتغيرات، المؤشرات والتي تمثل أهم المخططات في الرسم البياني أعلاه.

ثالثاً: أما فليبي بارديناس<sup>10</sup> فيقدم لنا مراحل البحث الاجتماعي موجزة في شكل عملية أساسية تنطلق كسابقاتها من النظريات والمعارف السابقة وتشمل الخطوات الآتية:

- دراسة النظريات والمعارف المتوفرة والمتعلقة بموضوع معين، وذلك بطريقة منهجية.

- الملاحظة: وتشمل الظواهر الاجتماعية الناتجة عن السلوك البشري.

- المشكلة: وتنتج عن ملاحظة مهيكلية وتكن عادة في شكل سؤال.

- الفرضية كاقترح للإجابة عن مشكلة.

- اختيار تقنيات اختبار الفرضية: وتمثل النقطة المركزية للبحث.

- تنفيذ الاختبار.

- الخاتمة وتقديم النتائج.

والملاحظ من هذا العرض الموجز أنه سطحي، تعرض للعناصر الجزئية لعملية البحث مغفلاً النظرة الكلية التي تسمح بتصنيف هذه العناصر وتبويبها. وهو عرض كلاسيكي لا يتميز بأية خصوصية.

رابعاً: يرى الكاتبان الفرنسيان كيفي وكمبنهو<sup>11</sup> أن البحث في العلوم الاجتماعية يهدف إلى مقارنة النتائج المتوقعة بالنتائج الملاحظة. وذلك من خلال المرور بمراحل سبع هي على التوالي: سؤال الانطلاق، الاستطلاع، الإشكالية، البناء، الملاحظة، تحليل المعلومات وأخيراً الخاتمة.

وهو يتميز بالتفصيل وخاصة في إطاره النظري (خمس مراحل تقريباً) كما يمكن ملاحظة تأثيره الواضح، كسابقه، (وخاصة في تفصيلات المرحلة الرابعة: مرحلة البناء) بتصنيف ب. لازارسفيلد التي عرض فيها مراحل البناء مركزاً تحليله على عناصر مثل المفهوم، الأبعاد، المتغيرات والمؤشرات.<sup>12</sup> وفيما يلي ملخص توضيحي لها:

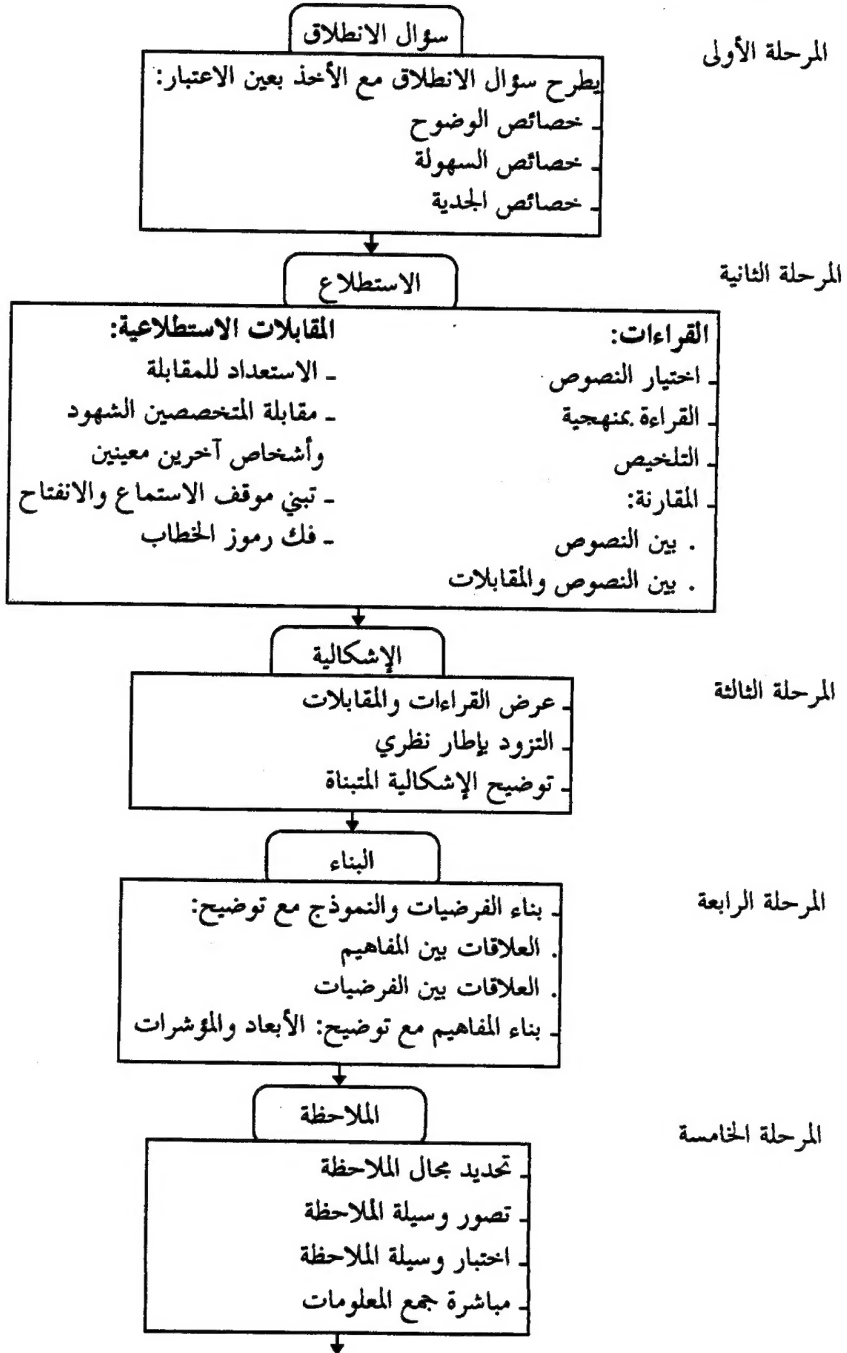
<sup>10</sup> Pardinas, P.: *Metodologia y técnicas de investigacion en ciencias sociales*, México: Siglo XXI, 1979, p.54.

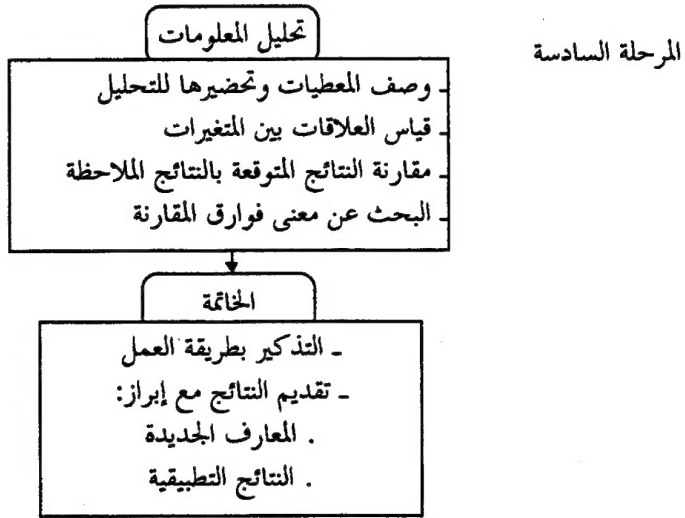
<sup>11</sup> Quivy, R. & Compenhoudh, L. V.: *Manuel de recherche en sciences sociales*, Paris: Dunod, 1989, pp.238-239.

<sup>12</sup> Grawitz, M., op.cit, pp.389-394.



الشكل (4) مراحل البحث الاجتماعي عند (Quivy, R., Compenhoudh, Luc Van)





- ويمكن اختزال هذه الخطوات العملية في خمس مراحل وبتسميات مغايرة هي:
- أ - تخطيط مشروع البحث: إثارة المشكلة واختيار طرق وأدوات جمع المعلومات (الإحصاءات الرسمية، الاستجابات، الاستثمارات، الملاحظة، الوثائق، التجارب...)
- ب - تخطيط العمليات التي ستستعمل: تحضير برنامج زمني وخطة عمل وميزانية بحث مفصلة، مع اختبار الوسائل بجمع المعلومات.
- ج - جمع المعطيات: استعمالها، تنظيمها واختبارها.
- د - تحليل المعطيات: ترميزها، جدولتها، تنظيمها، تفسيرها وتحليلها كما وكيفا.
- هـ - تقرير عن النتائج المحصلة: عرض شامل لها مع تلخيصها وتفسيرها.
- كما يمكن اختزال هذه المراحل إلى أربع، بجمع المرحلتين الأخيرتين تحت عنوان واحد لارتباطهما الوثيق، أو تفصيلها حتى إلى أكثر من عشر مراحل.

#### بعض النماذج الأنجلوساكسونية

أولاً: يرى والتر والاس<sup>13</sup> أن علم الاجتماع بوصفه فرعاً علمياً، يمكن القول بأن عملية البحث فيه تتمثل في خمسة أجزاء هي: المناهج، الملاحظات، التعميمات التجريبية، الفرضيات والنظريات.

<sup>13</sup> Wallace, Walter L.: *Sociological theory*, Chicago: Aldine P.C., 1969, pp.vii-x.

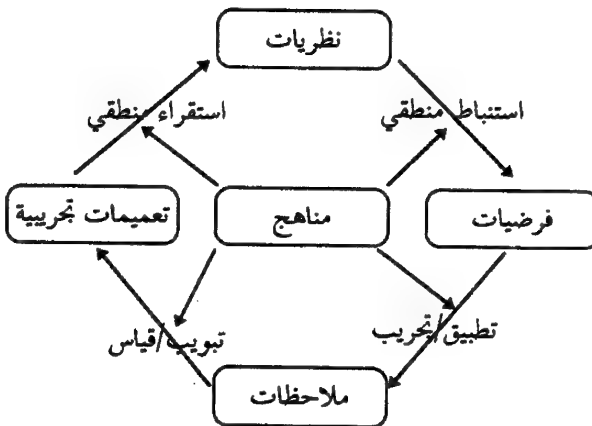
ولكي ندرس استعمالات أي منها يجب أولاً توضيح علاقاته المتبادلة مع بقية الأجزاء:

1- يمكن ملاحظة أنه بالرغم من أن المكونات الأساسية الخمسة لعملية البحث يمكن ذكرها منفردة، فإنها في الواقع متداخلة ومرتبطة ببعضها البعض، ولكن بدرجات متفاوتة، بحيث نجد أن أكثرها بروزاً وتمائزاً هو عنصر المناهج. وحتى في حالة قيامنا بتحديد تعسفي دقيق لكل منها، فإنه يكون من الصعب، إن لم نقل من المستحيل تحديد متى بالضبط تتحول النظريات إلى فرضيات، وهذه الأخيرة إلى ملاحظات والملاحظات إلى تعميمات تجريبية، ثم إلى نظريات... إلخ.

2- يمكن القول أنه بالرغم من هذا التواصل والتداخل بين أجزاء البحث الخمسة، فإنه لا يمكن الانتقال من جزء لآخر، أو من مرحلة إلى أخرى إلا بعد تحديد دقيق وشامل للجزء الأول شكلاً ومضموناً وكأنه مستقل عن الأجزاء الأخرى وخاصة في درجات تشكيلية.

وفيما يلي شكل توضيحي للعلاقة بين المكونات الخمس للبحث السوسيولوجي يبرز الوضع المتميز للمناهج والتواصل الدائري بين باقي العناصر:

الشكل (5) عمليات البحث الاجتماعي ومكوناته حسب (Wallace, Walter L.)



إذا كان للمناهج دور المراقب الرئيس، فإن النظريات هي أقوى المنتجات المعرفية المرجوة. وهذا يعني أن الملاحظات الفردية يمكن أن تحتوي على مجموعة معلومات محدودة حول الظاهرة المراد دراستها، أما التعميمات التجريبية والفرضيات فهي

تقتصر على تعديل مجموع المعلومات.

إن هذه العناصر الخمسة عبارة عن محطات ديناميكية تتواصل فيما بينها، كما هو موضح في الشكل أعلاه عن طريق المناهج وأدواتها:

- فالنظريات تتحول إلى فرضيات عن طريق الاستنباط المنطقي.
- والفرضيات يتم تجريبيها عن طريق الملاحظات والتعميمات بواسطة مناهج وأدوات مختلفة تبعا لطبيعة الموضوع.
- والملاحظات تتحول إلى تعميمات تجريبية عن طريق التبويب والقياس.
- والتعميمات التجريبية تتحول إلى نظريات عن طريق التعميم (استقراء منطقي).
- وأخيراً تجدر الإشارة إلى أنه لا يمكن اقتراح الفرضيات والنظريات قبل تحديد المناهج والملاحظات والتعميمات.

ثانياً: أما ب. هـ. مان فيحصر مراحل البحث الاجتماعي الأساسية في سبع، هي على التوالي:

- الفكرة الأولية: وتتمثل في أول فكرة تخطر ببال الباحث الاجتماعي والتي تتحول إلى موضوع بحث جديد. وقد يكون ذلك في أي وقت أو مكان، المهم أن يكون الباحث قوي الملاحظة وكثير القراءة.

- ربط الفكرة الأولية بالنظرية: إذا استقى الباحث فكرته الأولية من التراث السوسيولوجي، فإنه قد يجد هذه المرحلة غير ضرورية. أما إذا كانت ناتجة عن أي ملاحظة أخرى، فإن هذه المرحلة تصبح ضرورية وصعبة جداً في الوقت نفسه، إذ أنها تتطلب الإطلاع على ما كتب حول هذه الفكرة وربطها به.

- تحديد فرضيات الدراسة التي يجب أن تكون دقيقة، واضحة وقابلة للاختبار.

- جمع المعطيات: وهي عملية تختلف باختلاف طبيعة البحث. فقد تكون مصادرها ميدانية، كما قد تكون مصادرها إحصائية، تاريخية... إلخ.

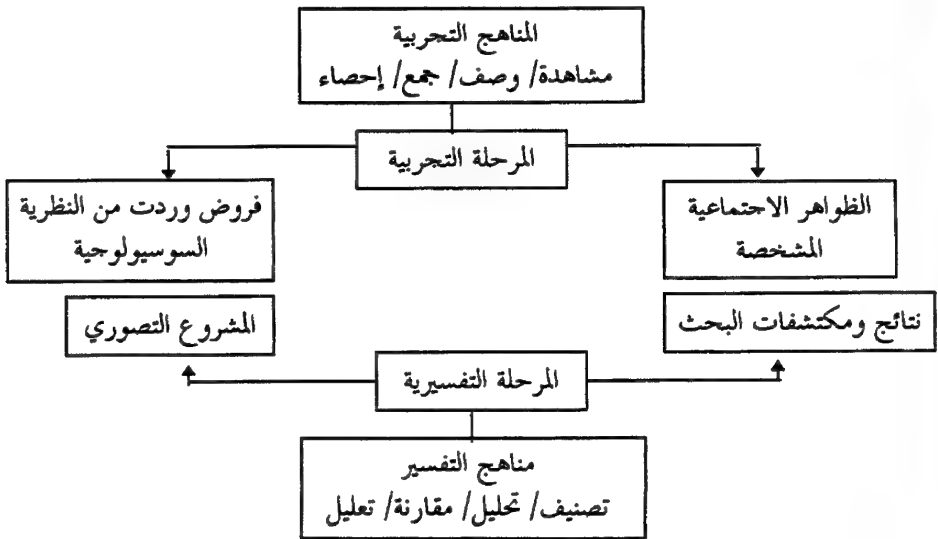
- تحليل المعطيات: إن المنهجية المستعملة في جمع المعطيات هي التي تحدد منهجية



الظواهر والوقائع الاجتماعية التي جمعها في ضوء فروض بحثه بغية تفسير مغزى هذه الظواهر. وتقابل هذه المرحلة مرحلة التجريب في العلوم الطبيعية، وهي تعدّ المحك الكلي للإطار النظري (مجموع الفروض والنظريات والقوانين العلمية) ولذلك نجد أن مناهج التفسير في هذه المرحلة تتأرجح بين نتائج ومكتشفات البحث من جهة، وبين معطيات الإطار النظري (أو المشروع التصوري Conceptual Scheme) كما تسميه Riley Matilda white في كتاب لها حول البحث الاجتماعي، والتي يبدو أن الكاتب تأثر كثيراً بتصورها لعملية البحث الاجتماعي من جهة أخرى، حيث يهدف كل بحث علمي في هذه المرحلة إلى اكتشاف الجديد أو تعديل، رفض أو تأكيد بعض القضايا العلمية الخاصة بالإطار النظري.

وتوضيحاً لما سبق نقدم فيما يلي المخطط العام لعملية البحث الاجتماعي في مرحلتها التجريبية والتفسيرية كما يراها قباري محمد إسماعيل: 16

الشكل (7) مراحل البحث حسب "قباري محمد إسماعيل"



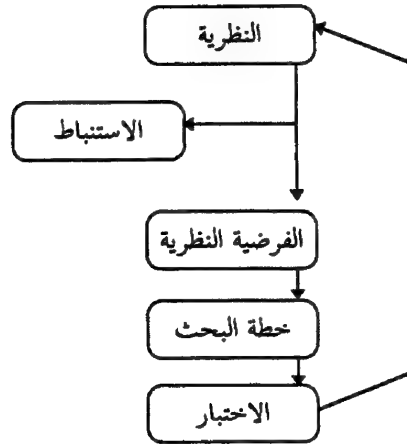
ثانياً: أما لؤي صافي فقد قدم محاولة حديثة في إطار التأصيل المعرفي للعلوم



### بعض دوافع المنهج الاستقرائي

إن كل التصنيفات المنهجية سابقة الذكر عبارة عن تصميمات دائرية (أصلها افتراضي/استنباطي) تحاول الربط بين النظرية التي تنطلق منها والمعلومات المستقاة من الواقع لإثبات أو نفي الافتراضات النظرية الأولية، إنها تعبر عن البناء التقليدي الدائري لمراحل البحث العلمي في العلوم الاجتماعية عموماً وعلم الاجتماع خصوصاً، والذي يتميز عموماً بنزعة افتراضية/استنباطية تعمل على تحويل ممارسة العلم إلى أعراس أو جنازات للنظريات... نفي، إثبات/نفي، إثبات...

الشكل (8) العملية الدائرية للبحث السوسولوجي



لقد أصبح من المؤكد اليوم أن علماء الاجتماع خصوصاً لا يقبلون هذا المخطط بمنهجه الافتراضي/الاستنباطي قبولاً مطلقاً لا تشوبه شائبة. لأنه لا يتوافق مع ما يقومون به من جهة ولا مع ما يقوم به علماء العلوم الفيزيائية أو الطبيعية. كما أنه لا يمكن اعتباره نموذجاً مثالياً يجب على أي بحث اجتماعي أن يقترب منه، وذلك لعدة أسباب، سنوجز أهمها فيما يلي:

#### ضعف التنظير

إن المنهج العلمي في علم الاجتماع لا يقتصر دوره على تبرير أو تأكيد النظريات بل يجب أن يتعداه إلى وجهة النظر السلبية (كيف ننفي وليس كيف نؤكد فقط: وهي الممارسة الغالبة عملياً وخاصة في جامعاتنا). ومن هذا المنظور الأخير، فإن





[...] تحقيق القطيعة الاستيمولوجية التي تنقل علم الاجتماع إلى الاتصاف بالصفة العلمية إلا بتحقيق ذلك الفصل".<sup>22</sup>

وقد يعود هذا التداخل بين المعرفة العامة والمعرفة العلمية إلى الألفة بالمحيط المجتمعي ومفاهيمه، كما قد يعود إلى ضعف التنظير أصلاً على المستويين المعرفي والمفاهيمي. ثم إن هذه النظريات الظنية قد تؤدي "دور العائق الاستيمولوجي، وذلك حين تضع مجموعة من المفاهيم المتناسكة المنغلقة، وحينما يتجه سعي العالم إلى أن يحافظ دائماً في عمله وهو يعمل بهدي من النظرية على تحقيق تماسكها أكثر مما يسعى إلى امتحان فاعليتها".<sup>23</sup>

وفي هذا الصدد يؤكد ميلز: "أن أصحاب النظريات الكبرى يقدمون أطراً فكريةً تصوريةً بالغة التحريد حتى تبدو في صورتها النهائية "تدريجاً ذهنياً" على استخدام المقولات النظرية، وبذلك تفقد "النظرية الكبرى" قوتها التوجيهية وتبتعد بالتالي عن محاولة فهم المشكلات الواقعية".<sup>24</sup>

وفضلاً عن ذلك، فإن المبالغة في العمل على تبرير النظريات الاجتماعية الشائعة وتأكيداتها أدت إلى عقم تنظيري فادح حال دون التوصل إلى اكتشافات نظرية جديدة أو إلى إبداع نظريات متميزة، وهو ما يؤكد اللجوء المكثف إلى الكلاسيكيين ومؤلفاتهم: إن العلم الذي لا يزال يلجأ، 200 سنة بعد نشأته، بهذه الكثافة إلى "آبائه المؤسسين" أو إلى "أجداده الروحيين" من رواد الفكر الاجتماعي الفلسفي اليوناني، هو علم لم يتقدم كثيراً.<sup>25</sup> بينما قد يؤدي إعادة الاعتبار للعمل التنظيري الاستقرائي (دون إغفال - بالطبع - العمل الاستنباطي باختبار ما تيسر من نظريات بالتأكيد أو النفي) إلى التمكين لكل من المنهج الكيفي والتحليل الاستكشافي المكشوف للمعطيات، ومن ثمّ للاستقراء، ولكن الاستقراء البعيد عن كل تجريبية مجردة، شكلية طقوسية أو تسطيح معرفي، إلى بناء قاعدة مقبولة لإنتاج نماذج نظرية.

22 محمد وقيدى، العلوم الإنسانية والأيدولوجيا (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1983)، ص 139.

23 المصدر السابق، الصفحة نفسها.

24 السيد الحسيني، نحو نظرية اجتماعية نقدية (القاهرة: مطابع سجل العرب، 1982) ص 203-204.

25 Moya, Carlos y Otros, op. cit., p.61. & Popper, K., *The open society and its enemies*, vol. 1, London: Routledge & Kegan Paul, 1962.



### أهمية الاستقراء

يعدّ الاستقراء أحد أهم الطرق الاستدلالية (مقابل الاستنباط، الذي يعدّ الجزء الجوهري من منطق أرسطو). وهو، على عكس الاستنباط، انتقل من الجزئي إلى الكلي أو من الخاص إلى العام، فهو يبدأ دائماً بملاحظة عدد من الحالات أو اصطناعها بوسائل التجربة التي يملكها الباحث ويبنى على أساسها النتيجة العامة التي توحى بها تلك الملاحظات أو التجارب... فهو استدلال يؤدي إلى نتائج أكبر من مقدماتها، عكس الاستنباط الذي تكون فيه النتيجة دائماً مساوية أو أصغر من مقدماتها. ومن ثمّ فالمنهج الاستقرائي/التجريبي (Inductive method) يختلف اختلافاً جذرياً عن المنهج الاستنباطي/القياسي (Deductive method) الذي يعدّ روح الحضارة اليونانية القائمة على النظر الفلسفي والفكري، وذلك بخلاف حضارات أخرى مثل الحضارة الإسلامية، التي أسهمت بقسط كبير في تأسيس المنهج الاستقرائي بجميع عناصره. وقد كانت أسبانيا هي المعبر الرئيس الذي انتقل عبره إلى أوروبا عن طريق "روجر و فرانسيس بيكون".<sup>28</sup>

إن العلة الأساسية لنقد المسلمين الأوائل للمنطق الأرسطي أن هذا المنطق يقوم أساساً على المنهج القياسي، الذي يعتبر قاصراً ذاتياً من جهة، ويعبر بالضرورة عن روح حضارة فلسفية خاصة ذات ملامح تختلف اختلافاً جذرياً في معتقداتها عن حضارتهم من جهة أخرى. وأما سبب نقد بعض علماء الاجتماع الغربيين لهذا المنطق الأرسطي، فيرجع أساساً للخصائص الذاتية لهذا المنهج والتي منها، كما ذكرنا من قبل، ضعف التنظير وإيجابيات الاستقراء نفسه.

إن ضعف التنظير السوسيولوجي بالضبط هو أحد الأسباب المؤدية إلى التأكيد على الاستقراء مقابل الهيمنة شبه المطلقة التي يتمتع بها الاستنباط داخل المنهج العلمي في العلوم الاجتماعية. ولكن على هذا الاستقراء ألا يقع فيما وقع فيه أصحاب النزعة التجريبية المجردة الذين يرفضون "ذكر أي شيء عن المجتمع الحديث ما لم يستكملوا طقوسهم المنهجية الشكلية التي لا تسهم في تحقيق الفهم بقدر ما تسهم في تسطيح المعرفة".<sup>29</sup>

28 علي سامي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي (بيروت: دار النهضة العربية، ط. 3، 1984)، ص 354، 356.  
29 السيد الحسيني، نحو نظرية اجتماعية نقدية، مرجع سابق، ص 204.



المنهج الاستقرائي في براعة نادرة لتفسير الذوات العرضية التي قابلها، تفسيراً يستند على التحليل والتركيب ومستخدماً قياس الغائب على الشاهد، من ناحية واستقراء الحوادث العارضة في المشاهدة، للتوصل إلى أحكام عامة".<sup>33</sup>

وما عدا ذلك، فإنه يمكن القول بأن جهود علماء المسلمين الأوائل غلب عليها تطوير أدوات معرفية ومناهج بحثية لدراسة النصوص وتحليلها وخاصة منها ما تعلق بفقهاء العبادات وذلك على حساب فقه المعاملات، فلم يهتموا كثيراً بتطوير منهجية غير نصية (تاريخية واستقرائية) في المجالات النفسية والاجتماعية والسياسية، أو ما يمكن تسميته بفقهاء الواقع والمعارف الاجتماعية عموماً. وهو عين المجال الذي استوقف اهتمام علماء الغرب بل خطف لُبهم إلى حد جعلهم يكادون يهملون ويلغون البعد الغيبي والنصي المرتبط بالوحي الإلهي.

بينما الأصل هو الجمع بين المنهجين الاستنباطية والاستقرائية، بالبحث عن آليات عملية (الملاحظة، التحديد، الفهم، التنسيق، التفسير، التدرج...) تمكنا من الجمع بين استنباط الكليات أو القواعد العامة أو المنطلقات النظرية من الوحي خاصة (عند المسلمين طبعاً) أو من أية تعميمات أو قوانين منطق بشري (عند الوضعيين عموماً) واستقراء الجزئيات من الواقع الاجتماعي والتاريخي.

## الخاتمة

خلاصة القول أنه إذا عقدنا مقارنة بسيطة بين العروض التطبيقية الاستنباطية، فإنه يمكن استنتاج:

أولاً: أن عملية البحث في العلوم الإنسانية عملية دائرية وأصلها افتراضي-استنباطي، تحاول الربط بين النظرية التي تنطلق منها والمعلومات المستقاة من الواقع لإثبات، تعديل أو نفي الافتراضات النظرية الأولية.

ثانياً: إذا كانت عملية البحث في العلوم الإنسانية عملية دائرية أساساً، فإنه على الرغم من ضرورة التزامها ببعض القواعد المنهجية المحددة، يجب عليها، وفي نفس الوقت، أن تشجع على استعمال البديهة والخيال... فأية عملية بحث تحتاج عادة إلى

<sup>33</sup> علي سامي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، مرجع سابق، ص 349.

قادر معين من المجلس والإبداع، كما يشير إلى ذلك فايربند (Feyerabend, P.) في كتابه ضد المنهج.<sup>34</sup>

ثالثاً: يمكن التمييز بين نوعين من التصنيفات: التصنيفات الكلية، وتمثلها العروض التطبيقية التي تفرق أصلاً بين مرحلتين رئيسيتين أو ثلاث على الأكثر مع تخصيصها بتسميات مختلفة: التجريبية، التفسيرية، النظرية، الواقعية أو التطبيقية؛ والتصنيفات الجزئية، وتمثلها التصنيفات التي تتضمن من أربع إلى ثماني مراحل. ويتميز هذا النوع من التصنيفات عموماً بتقديرات متباينة لأهمية مختلف العناصر التي تدخل في عملية البحث الاجتماعي وكذا في تسميتها وتشخيصها وتنظيمها.

رابعاً: لقد أصبح شائعاً الآن بين ثلثة من المتخصصين (التيار المتمرد في الغرب، التيار النقدي في أمريكا اللاتينية والعالم العربي، التيار التأصيلي في العالم الإسلامي) بأن للمنهجية في التراث المعرفي الغربي مقدمات أيديولوجية لا تتفق من جهة مع تصورات أخرى غير غربية ومنها التصور الإسلامي ومن جهة أخرى مع استقرارات واقعية وتاريخية غير صالحة للتعميم على الحيزات الحضارية الأخرى. ولذا وجب الأخذ بعين الاعتبار هذا التمايز في المنطلقات والوقائع وخاصة في مثل هذه الحالات الاستثنائية.

خامساً: وتجدر الإشارة في الأخير إلى القول بأن التفسير الاستنباطي للمنهج العلمي في العلوم الاجتماعية ينطلق من الوجود الضروري لقوانين المنطق العام أو التعميمات التجريبية التي لا تزال يفتخر بها علم الاجتماع المعاصر. أما ضعفه فناتج أساساً عن ظنية الجزء الأكبر من مقدماته، بسبب تغييبه لأهم مصدر معرفي منزل ثابت: الوحي.

ومع ذلك، فإن الميزة الأساسية للفاعل الاجتماعي -موضوع العلوم الاجتماعية- المتمثلة في قصدية أفعاله وقدرته التفكيرية حولها، يجب أن تعود بنا إلى فكرة فيبر الداعية إلى إرفاق التفسير بالفهم، آخذين بعين الاعتبار وجهة نظر الفاعل الاجتماعي، وإلى المنهجية التكاملية التي طبقها ابن خلدون مع ترجيح، ما أمكن ذلك، المنهج الاستقرائي التجريبي الذي يعدّ أقرب إلى الفهم البشري العام، وأقدر على ملء وجدان الإنسان وعقله بالإيمان من السرايين الفلسفية ذات الصيغ النظرية المجردة والتي هي أقرب إلى عقل خاصة الناس. وقد يكون التماثل بين الأسس المنطقية

<sup>34</sup> Sierra Bravo, R., op.cit, p.22.

التي يقوم عليها الاستدلال على إثبات خالق الكون (في المجال العقدي عند المسلمين) والأسس المنطقية التي تقوم عليها الاستدلالات العلمية المستمدة من الملاحظة والتجربة، هي السبب الذي أدى بالقرآن الكريم إلى التركيز على هذا النوع من الاستدلال تأكيداً على طابعه التجريبي والاستقرائي.<sup>35</sup>

أما فيما يخص مجال علم الاجتماع المعاصر، فإن منهجية بحثه العلمي باختصار ليست وصفاً للممارسة العلمية لعلماء الاجتماع، ولا نموذجاً مثالياً يجب الوصول إليه. لقد أشرنا من قبل إلى أهم الصعوبات التي تعترض ذلك ونضيف إليها اعتراضاً بسيطاً يتمثل في كون هذه المنهجية في سياقها الاستنباطي تعقد عملية البحث الميداني على الطلبة الذين يستصعبون بحق عملية ربط "الفكرة الأولية بالنظرية" بداية التي يفرضها هذا المنهج. إن الممارسة العلمية في علم الاجتماع، والبحث العلمي -حسب ف. بشوفن (Bechoven, F.: 1974) عبارة عن "تفاعل مبهم بين التصوري والتجريبي، بين الاستنباط والاستقراء".<sup>36</sup>

وعلى الرغم من ذلك، فإن منهجية البحث العلمي في علم الاجتماع لا زالت تتمتع بخصائص مساعدة على الاستدلال أو الاستكشاف مما يجعلها مفيدة خصوصاً بوصفها مصدراً ونموذجاً توجيهياً يسمح بتحليل مشاكل ومراحل البحث في علم الاجتماع، ولكنها، كما سبق وأن أشرنا، يجب أن:

- تستفيد أكثر فأكثر من الميزات التجريبية للاستقراء.
- تأخذ بعين الاعتبار عند تفضيلها الاستنباط أو الاستقراء أو الجمع بينهما طبيعة الموضوع المدروس وحيثياته المختلفة.

- تستفيد من المحددات الكلية للوحي الإلهي التي تساعد على استبعاد الأحكام الجزئية التي تتناقض مع الأحكام الكلية الثابتة من جهة أخرى، فتبتعد عن بعض غاياتها الهدامة: تزيين الإباحية الجنسية، التفوق العنصري، بعث النعرات العرقية، الهيمنة، إيقاظ الفتن، انحصار الوجود في الإنسان والطبيعة.

<sup>35</sup> محمد باقر الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء (بيروت: دار المعارف للطبوعات، ط. 5، 1986)، ص 469.

<sup>36</sup> Alvira Martin F., "Perspectiva cualitativa - perspectiva cuantitativa en la metodologia sociologica", R.E.I.S., N° 22, Madrid: C.I.S., 1983, p62.